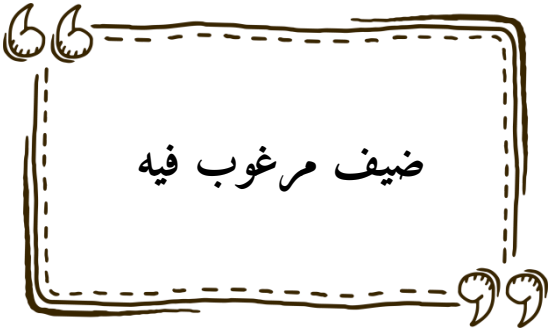
ضيف مرغوب فيه

كانت اللهفة تتملكني حينما هبطت طائرتي إلى أرض الوطن بعد اغتراب من أجل رغد العيش في واحدة من الدول العربية الصديقة دام سبعة وعشرين شهرًا، فكنت ملهوفًا لحضن زوجتي الودودة وأبنائي الصغار، الأكبر منهم زياد والأوسط عبد الله، يدرسان في المرحلة الابتدائية، وآخر سلسالي سارة ذات الثلاثة والعشرين شهرًا تلك القطعة المتحركة من روحي التي لم أعاصر ولادتها، فقد تركتها جنينًا في أحشاء أمها حيث من المقرر الاحتفال بعيد ميلادها الثاني أثناء إجازتي التي تمتد شهرين متتابعين.

وعند عودتي التقطت صورة فوتوغرافية مع زوجتي وأبنائي فكان من مشهدها فرحة تضاهي فرحة الصائم الجائع حين يفطر، حيث لم تشبع تطبيقات الهواتف النقالة حنيني لهم، ثم خلدت في نوم عميق للاستراحة من عناء السفر لكي أبدأ إجازتي الفعلية مع عائلتي صباح اليوم التالي بكل حيوية ونشاط، وعند استيقاظي عند منتصف النهار لم أجد زوجتي بجانبي في غرفتنا، ولكن كان ضجيج صوتها قد وصلني من قبلها، حينما كانت تصرخ فيَّ أميرتي الصغيرة عند عبثها بمتعلقات المنزل، ليأتيني بعدها أبنائي مجتمعين، وكنت لا أزال لم أغير من موضع نومي.

– بابا أنا عاوز 100 جنيه فلوس الدرس الخصوصي.

– الفلوس عندك يا عبد الله في الدرج.

– هترجع الساعة كام؟

– مش عارف ممكن بالليل.

أردت أن أبدأ مع عبد الله الحديث ومناقشته في أحواله الشخصية ولكنه غادرني مسرعًا، أما زياد ابني الأكبر لم يتحدث ولو بحرف واحد،

وفعل مثلما فعل شقيقه وخرج من الغرفة كأنني قطعة من الأثاث لا قيمة لها، ولم تتخذ سارة أيضًا فعلًا مغايرًا فذهبت لكي تحصل على النقود مثل أشقائها ولكن قصر قامتها منعها من تحقيق مرادها لتأتيني مسرعة من جديد.

- عمو عمو هات لوس.

- عمو؟ عمو مين يا سارة؟ أنا بابا يا حبيبتي.

- لأ، بابا لأ.

- أمال بابا فين؟

أشارت إلى الهاتف المحمول الموجود بحوزتي.

- بابا موجود هنا.

- طب هاتي بوسة وحضن كبير وأنا أدي لك فلوس.

- لأ هات لوس.

- هتديني بوسة؛ هادي لك الفلوس.

اقتربت سارة مني وبكل ثقة وحماس وأعطتني صفعة على وجهي كصوت آلة الدرامز أحدثت رنينًا قويًّا بدلًا من القبلة التي كنت أتمناها، لتأتي بعدها زوجتي حاملة حاوية طعام الإفطار.

– ماما عمو هات لوس لأ، عمو وحش، عمو امشي باي.

– (بلهجة استنكارية) عاوزاني أمشي يا سارة؟

لم تجاوبني ولكنها اكتفت بالنظر إليَّ وكأنها تنظر إلى أحد المجرمين خاطفي الأطفال، ثم بصقت عليَّ وخرجت لتلهو في غرفتها لتغرق زوجتي في بحر من الضحكات دون أن تشجب سلوك ابنتها أو تخفف من هول صدمتي المكتسبة.

انتصفت مدة إجازتي فكانت بطيئة شعرت فيها بالاغتراب وأنا بين أبنائي، فكان لا بد من اكتشاف عائلتي من جديد وتقبل أوضاعهم كما هي دون تغيير، حتى وإن كان يشوبهم بعض الهفوات والسلوكيات المذمومة، ليمكنني التكيف معهم دون عناء، فزوجتي الملاك الحنون لم تعد ضاحكة باسمة؛ فأصبح صراخها في الأبناء من واجباتها الأساسية ولهجة الأمر بسيادية هي دستور علاقاتها بالأبناء، وأهملت في اهتمامها بجمالها وأصبحت كأنثى الثور الممتلئة باللحوم الجاهزة للذبح، فتملكني الفتور منها فيما يخص واجب الزوجية.

أما أبنائي الذكور فكان الأكبر منهم زياد لا يعترف بوجود المنزل إلا في أوقات النوم والطعام، ولا أحد يعلم أين يذهب أو ماذا يفعل، أصبح

يهاتف أصدقاءه وصديقاته لوقت طويل، ويقول لأحدهم حبيبي، تلك الكلمة التي لم يوجهها لي مطلقًا.

أما عبد الله فالصدفة وحدها كانت كفيلة بكشف ستره وعواره السلوكي، حين دخلت غرفتي لأجد عبد الله يعبث بأموالي ويضع كثيرًا منها في جيب بنطاله دون علمي أو موافقتي المسبقة، فلم أظهر له أنني قد كشفت فعلته ليفاجئني بعدها بطلب المال من جديد، فقدمت له ما يريد ثم بدأت متخفيًّا في متابعة خطواته خارج المنزل فتيقنت بعدم حضوره للدروس الخصوصية التي تكلفني الكثير من المال، والتي من أجلها ابتعدت عنهم، وبدأ يلهو بأموالها باللعب بالألعاب النارية بصحبة رفقاء السوء، وقضائه العديد من الساعات في أحد المحلات التجارية المخصصة لألعاب الشباب.

فعدت لمنزلي بمفردي مصحوبًا بحسرتي، لأجد زوجتي لاهية في طهي الطعام، تصرخ في ابنتي الصغيرة التي في أمس الحاجة إلى اللهو والمشاركة في فعاليات الحياة، فأصبحت لا أدري ماذا أفعل، حينها تذكرت اتفاقي مع زوجتي بسفري وترحالي وتحمل ويلات الوحدة

والعمل الشاق من أجل تأمين مستقبل مالي لأبنائي المحروم منهم، مقابل تفرغها التام لرعايتهم كما يجب، ولكني لم أكن أعلم تبعات هذا الاتفاق اللعين، فأصبحت كماكينة المال مقابل العناية والاهتمام من زوجتي لي ولأبنائي، والتي لم نلقها على أكمل وجه، وحينما قررت التدخل أثناء إجازتي لمحاولة إنقاذ ما يمكن إنقاذه صعقت من زوجتي التي صاحت في وجهي كتيار الماء الغليظ العائد بعد غياب.

– ما تتدخلش في نظام البيت، أنا عارفة أنا باعمل إيه كويس، وكل حاجة تحت السيطرة، كبر دماغك واستمتع بالأجازة وما تضايقش الأولاد علشان يفضلوا يحبوك، انت كام يوم وهتمشي، فخليك ذكرى حلوة عندهم.

فكان قراري الحاسم إلغاء الأسابيع الستة المتبقية من إجازتي، والعودة لمقر عملي في الدولة العربية الشقيقة، تاركًا زوجتي لتكمل ما بدأته، حيث توفير المقابل المادي للعمل بشكل إضافي يخص فترة زمنية مقدارها شهر ونصف هو عين الصواب لمواجهة تكاليف الحياة وتأمين حياة كريمة للأبناء الذين سيصبحون بطريقة تربوية معينة أو بأخرى في

أفضل حال فالأمر لا يتعدى وجهة نظر مختلفة بيني وبين زوجتي، فهي المعاصرة للواقع الذي ابتعدت عنه حسب اتفاقنا معًا، هكذا أبلغت زوجتي حين مغادرتي، ولكني أخفيت عنها بأنني ذاهب لإنهاء تعاقدي وجمع مستحقاتي المالية عند جهة العمل للعودة لتغيير لقبي من ضيف مؤقت مرغوب فيه إلى القائد والمدير المستديم.

❋ ❋ ❋